

## التشبيه في القرآن

للاستاذ أحمد أحمد بدوي

- ١ -

أرى واجبا على قبل الحديث عن التشبيه في القرآن الكريم ،  
أن أحدث قليلا عن بعض نظرات للأقدمين في هذا الباب ،  
لا أوافقهم عليها ، ولا أرى لها قيمة في التقدير الفني السليم .

فما اعتمد عليه القدماء في عقد التشبيه العقل ، يجعلونه رابطا  
بين أمرين أو مفرقا بينهما ، وأفضلوا في كثير من الأحيان وقع  
الشيء على النفس ، وشموها به سرورا أو ألما . وليس التشبيه  
في واقع الأمر سوى إدراك ما بين أمرين من صلة في وقمها على  
النفس ، أما تبطن الأمور ، وإدراك الصلة التي تربطها بالعقل  
وحده ، فليس ذلك من التشبيه الفني البليغ ، وعلى الأساس الذي  
أقاموه استجادوا قول ابن الرومي :

بذل الوعد للأخلاء سجحا وأبى بعد ذلك بذل المطاه

فذا كالحلاف يورق للميت ، وأبى الإنار كل الإياه

وجملوا الجامع بين الأمرين جمال المنظر وتفاهة الخير ، وهو  
جامع عقلي ، كما ترى ، لا يقوم عليه تشبيه فني صحيح ، ذلك أن  
من يقف أمام شجرة الحلاف أو غيرها من الأشجار ، لا يتطبع  
في نفسه عند رؤيتها سوى جمالها ونضرة ورقها وحسن أزهارها ،  
ولا يخطر بباله أن يكون لتلك الشجرة الوارفة الظلال أن يكون  
لها ثمر يجنيه أو لا يكون ، ولا يقلل من قيمتها لدى رائيتها ، ولا  
يحط من جمالها وجلالها ، ألا يكون لها بعد ذلك ثمر شهى ، فإذا  
كانت تفاهة الخير تقلل من شأن الرجل ذي المنظر الأنيق وتمكس  
صورة منتقصة في نفس رائيه ، فإن الشجرة لا يقلل من جمالها  
لدى النفس عدم إثمارها ، وبهذا اختاف الوقع لدى النفس بين  
الشبه والشبه به ، ولذلك لا بعد من التشبيه الفني القبول .

وقبل الأقدمون من التشبيه ما عقدت الحواس الصلة بينهما ،  
وإن لم يكن تمقدها النفس ، فاستجادوا ، مثل قول الشاعر

١ - فصل من كتاب ( من بلاغة القرآن ) الذي يطبع الآن .

بصفت بتفسجا :

ولا زوردية تزهو بزرقها بين الرياض على حمر اليواقيت

كأهاوق قامت ضمن بها أوائل النار في أطراف كبريت

فليس نمة ما يجمع بين البنفسج وعود الكبريت وقد بدأت  
النار تشتعل فيه ، سوى لون الزرقعة التي لا تكاد تبدأ حتى تمتدق  
في حمرة اللهب ، فضلا عن التفاوت بين اللونين ، فهو في البنفسج  
شديد الزرقعة وفي أوائل النار ضيها ، فضلا عن هذا التفاوت  
تجد الوقع النفسى شديد التباين ، فزهرة البنفسج توحى إلى النفس  
بالمهدوء والاستسلام وفقدان المقاومة ، وربما اتخذت لذلك رمزاً  
للحُب ، بينما أوائل النار في أطراف الكبريت تحمل إلى النفس  
معنى القوة واليقظة والمهاجمة ، ولا تكاد النفس تجد بينهما رابطاً .  
كما استجادوا كذلك قول ابن المعتز :

كأنا وضوء الصبح يستمجل الدجى نظير غرابا ذا قوادم جون  
قال صاحب الإيضاح : « شبه ظلام الليل حين يظلم فيه  
ضوء الصبح بأشخاص الغراب ، ثم شرط قوادم ريشها بيضاء  
لأن تلك الفرق من الظلمة تقع في حواشيتها ، من حيث يلي معظم  
الصبح وعموده لمع نور ، يتخيل منها في العين كشكل قوادم بيض »  
وهكذا لم ير ابن المعتز من الدجى وضوء الصباح سوى لونها ،  
أما هذا الجلال الذي يشعر به في الدجى ، وتلك الحياة التي يوحى  
بها ضوء الصبح ، والتي عبر القرآن عنها بقوله : « والصبح إذا  
تنفس » - فما لم يحس به شاعرنا ولم يقدره نقادنا ، وأين من جلال  
هذا الكون الكبير ، ذرة نظير ؟

وقبلوا من التشبيه ما كان فيه المشبه به خيالياً ، توجد أجزاءه  
في الخارج دون صورته المركبة ، ولا أردد في وضع هذا التشبيه  
بمبدأ عن دائرة الفن ، لأنه لا يحقق الهدف الفني للتشبيه ، فكيف  
تلمح النفس صلة بين صورة ترى ، وصورة يجمع العقل أجزاءها  
من هنا وهنا ، وكيف يتخذ التخيل مثالا لمحوش سرق ، وقبل  
الأقدمون لذلك قول الشاعر :

وكان محمر الشقيق إذا تصوب أو تصعد

أصلام ياقوت نثرن من على رماح من زبرجد

ألا ترى أن هذه الأعلام من الياقوت ، المنشورة على رماح

فيه وبدعى إمتناعه (١) ، وقد استشهدوا على هذا النرض بقول المتبنى :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال  
وليس في هذا البيت تشبيه فنى مقبول ، فليس الأثر الذى  
يحدثه المسك فى النفس سوى الإرتياح لأريحته الذكية ، ولا يمر  
بالخاطر أن بعض دم الغزال ، بل إن هذا الخاطر إذا مر بالنفس  
قل ذلك من قيمة المسك ومن التلذذ به ، وهذه الصورة التى جاء  
بها التنبي ليوضح إحساسه نحو سحر فرد على الأنام ، ليست فوية  
مضنية ، تلقى أسمىها على شعوره فتضيقه لنا ، فإن تحول بعض  
دم الغزال إلى مسك ليس بظاهرة قريبة مألوفة ، حتى تقرب إلى  
النفس ظاهرة تفوق المدوح على الأنام ، كما أن ظاهرة تحول  
المدوح غير واضحة ، ومن ذلك كله يبدو أن الرابط هنا عقل  
لا نئسى وجدانى .

وليس من أغراضه ما ذكره الأقدمون أيضاً من الاستطراف ،  
فليس تشبيه فم فيه بحر موقد يبحر من المسك موجه الذهب -  
تشبيهاً فنياً على هذا المقياس الذى وضعناه ، فإن بحر المسك ذو  
المرج الذهبى ، ليس بهذا الصباح الوهاج الذى يغير الصورة ويهبها  
نوراً ووضوحاً .

ولما كان هدف التشبيه الإيضاح والتأثير أرى الأقدمين قد  
أخطئوا حينما عدوا البليغ من التشبيه ما كان بعيداً فريباً نادراً ،  
ولذلك عدوا قوله :

وكان أجرام النجوم لوامسا درر نثرن على بساط أزرق

أفضل من قول ذى الرمة :

كعلاء فى برج ، صفراء فى نبع (٢) كأنها فضة قد مسها ذهب  
« لأن الأول مما يندر وجوده دون الثانى فإن الناس

أبدأ يرون فى الصياغات فضة قد موته بذهب ولا يكاد يتفق أن  
يوجد « وقد نثرن على بساط أزرق » (٣)

وذلك قلب للأوضاع ، وبد من مجال التشبيه الفنى الذى

الزرجد ، لم تزدك عمق شعور بحمر الشقيق ، بل لم ترسم لك  
صورته إذا كنت جاهله ، فسا قيمة التشبيه إذا وما هدفه ! !  
وسوف أحدث عن الآية الكريمة التى فيها هذا اللون من  
التشبيه لنذكر سره وقيمه .

هذا ، ولن نقدر التشبيه بنفاسة عناصره ، بل بقدرته على  
التصوير والتأثير ، فليس تشبيه ابن المعتز للهلال حيث يقول :

أنظر إليه كرورق من فضة قد أتقلته حمولة من عنبر

وتلمس شبه له بهذا الزورق الفضى الثقيل بحمولة العنبر ،  
ما يرفع من شأنه ، أو ينهض بهذا التشبيه الذى لم يزدنا شعوراً  
بجمال الهلال ، ولا أنسا برؤيته ، ولم يزد على أن وضع لنا إلى  
جانب الهلال الجليل صورة شوهاء متخيلة . وأين الزورق الضخم  
من الهلال النحيل ، وإن شئت فوازن بين هذه الصورة التى  
رسمها ابن المعتز للهلال وتلك الصورة التى تبرهن الاحساس البصرى  
والشعر النفسى مما حينما تحدث القرآن عن هذا الهلال ، فقال :  
« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » فهذا العرجون  
القديم أقدر على تصوير القمر كما تراه العين وكما تحس به النفس  
أكثر من تصوير الزورق النفسى له كما سنرى .

- ٢ -

التشبيه لمح صلة بين أمرين من حيث وقعها النفسى ، وبه  
يوضح الفنان شعوره نحو شىء ما ، حتى يصبح واضحاً وضوحاً  
وجدانياً ، وحتى يحس السامع بما أحس المتكلم به ، فهو ليس  
دلالة مجردة ، ولكنه دلالة فنية ، ذلك أنك تقول : ذاك رجل  
لا ينتفع بملحه ، وليس فيما تقول سوى خبر مجرد عن شعوره نحو  
فنج هذا الرجل ، فإذا قلت إنه كالخار يحمل أسفاراً ، فقد وصفت  
لنا شعورك نحوه ، ودلت على اعتقارك له وسخريتك منه .

والنرض من التشبيه هو الوضوح والتأثير ، ذلك أن  
المتفنن يدرك ما بين الأشياء من صلوات يمكن أن يستعان بها فى  
توضيح شعوره ، فهو يلمح وضاعة ونوراً فى شىء ما ، فيضمية  
بجانب آخر يلقى عليه ضوءاً منه ، فهو مصباح يوضح هذا  
الإحساس الوجدانى ، ويستطيع أن ينقله إلى السامع .

ليس من أغراض التشبيه إذا ما ذكره الأقدمون من بيان  
أن وجود المقبه يمكن وذلك فى كل أمر فريب يمكن أن يخالف

١ - الإيضاح ٢٢ ص ٢٤

٢ - البرج بالتحريك أن يكون يانى العين عداً بالسواد ، والنجم

البياض الخالص . ٣ - الإيضاح ٢٠ : ٢٠

ويرمى أحياناً إلى اشتراك الطرفين في صفحة محسوسة ، ولكن للنفس كذلك نصيبها في اختيار المشبه به الذي له تلك الصفة ، وحسبى أن أورد هنا آيات ثلاثاً تتبين فيها هذا الذي أشرنا إليه . فالقرآن قد شبه نساء الجنة فقال : « فهن قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون » وقال : « وجور عين كأنثال اللاؤؤ المكنون » ، فليس في الياقوت والمرجان واللاؤؤ المكنون لون غلب ، وإنما هولون صاف حتى ، فيه نقاء وهدوء ، وهي أحجار كريمة تصان ويحرص عليها ، وللنساء نصيبهن من الصيانة والحرص ، وهن يتخذن من تلك الحجارة زينةهن ، فقربت بذلك الصلة واشتد الارتباط ، أما الصلة التي تربطهن بالبيض المكنون ، فضلاً عن نقاء اللون ، فهي هذا الرفق والحذر التي يجب أن تعامل به كليهما . ألا ترى في هذا الكن أيضاً صلة تجمع بينهما ، وهكذا لا تجسد الحس وحده هو الرابط والجامع ، ولكن للنفس نصيب أى نصيب . وحينئذ يجمع بين الطرفين المحسوسين معنى من المعاني لا يدرك بإحدى الحواس ، وقل ذلك في القرآن الكريم الذي يعتمد في التأثير أكثر اعتماد على حاسة البصر ، ومن القليل قوله سبحانه : « أولئك كالأنعام بل هم أضل » ، وصفته ضلال الأنعام من أبرز الصفات وأوضحها لدى النفس . وكثر في القرآن إيضاح الأمور المنوية بالصورة المرئية المحسوسة ، تلقى عليها أشعة من الضوء وتتمرها ، فتصبح شديدة الأثر ، وها هو يمثل وهن ما اعتمد عليه الشركوت من عبادتهم غير الله وهن لن يقدم فائدة ما ، فهم يبدون ويبدلون جهلاً يظنونهم مشركاً وهو لا يجدى ، فوجد في المنكبوت ذلك الحيوان القوي يتعب نفسه في البناء ، ويذل جهده في التنظيم ، وهو لا يبنى سوى أوهرن البيوت وأضعفها ، فترن تلك الصورة المحسوسة إلى الأمر المنوي ، فزادته وضوحاً وتأثيراً ، قال تعالى : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل المنكبوت اتخذت بيوتا ، وإن أوهرن البيوت لبيت المنكبوت لو كانوا يعلمون » .

وها هو ذا يريد أن يمدننا عن أعمال الكفرة ، وأنها لا فناء فيها ، ولا ثمرة ترجى منها ، فهي كمدنها فوجد في الرماد الدقيق ، لا نبقى عليه الريح العاصفة سورة تبين ذلك الذي آمم ببيان وأرفاه

توضع فيه صورة قوية تبث الحياة والقوة في صورة أخرى بجوارها ، ورغم أن التشبيهين السالفين حسيان أرى التشبيه الثاني أقوى وأرفم ، ولست أرى إلى أن يكون التشبيه مبتذلاً ، فإن الإبتدال لا يثير النفس ، فيفقد التشبيه هدفه ، ولكن أن يكون في قرب التشبيه ما يجعل الصورة موضحة مؤثرة كما سنرى .

— ٣ —

ليس الحس وحده هو الذي يجمع بين المشبه والمشبه به في القرآن ، ولكنه الحس والنفس معاً ، بل إن للنفس النصيب الأكبر والحظ الأوفى .

والقرآن حين يشبه محسوساً بمحسوس يرمى أحياناً إلى رسم الصورة كما تحس بها النفس ، نجد كذلك في قوله سبحانه يصف سفينة نوح : « وهي تجري بهم في موج كالجبال » ألا ترى الجبال تصور للمعين هذه الأمواج الضخمة ، ونصور في الوقت نفسه ما كان يحس به ركاب السفينة هذه وهم يشاهدون هذه الأمواج من رهبة وجلال معاً كما يحس بها من يقف أمام شامخ الجبال . وقوله تعالى يصف الجبال يوم القيامة : « وتكون كالصن من النفوش <sup>١</sup> » فالهين النفوش يصور أمامك منظر هذه الجبال ، وقد سارت هشة لا تماسك أجزاءها ، ويحمل إلى نفسك معنى خفتها وليتها . وقوله تعالى : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » فهذا القمر بهجة السماء وملك الليل ، لا يزال يتنقل في منازل حتى يصبح بعد هذه الاستدارة البهجة وهذا الضوء الساطع النامر ، يبدد ظلمة الليل ، ويحيل وحشته أنساً يصبح بعد هذا كله دقيقاً نحيلاً محدود الانتكاد المعين تنقبه إليه وكأنما هو في السماء كوكب نائه ، لا أهمية له ، ولا عناية بأمره ، ألا ترى في كلمة العرجون ووصفها بالقديم ما يصور لك هيئة الهلال في آخر الشهر ، ويحمل إلى نفسك ضالة أمره معاً ، وقوله تعالى يصف نيران يوم القيامة : « إنها ترى بشر كالقصر . كأنه جمالة صفر » ، فالقصر وهو الشجر الضخم والجمال الصفر توحى إلى النفس بالضخامة والرهبة معاً ، وصور لنفسك شرراً في مثل هذا الحجم من الضخامة بطير .

هدى حتى إذا أرى إلى بيته فرجد هذا الصباح في المشكاة وجد  
الأمن سبيله إلى قلبه ، واستقرت الطمأنينة في نفسه وشمر بالسرور  
ينمر فؤاده .

وإذا تأمات الآية رأيتها قد مضت نصف ضوء هذا الصباح  
وتألق في وصفه ، بما يصور لك قوته وصفاهه ، فهذا الصباح له  
زجاجة تنكسب ضوءه قوة ، تجمله بتلاؤلاً كأنه كوكب له بريق  
الدر ولمانه؛ أما زيت هذا الصباح فن شجرة مباركة قد أخذت  
من الشمس أرقى نصيب ، قصفاً لذلك زيتها حتى ليكاد يضيء ولو  
لم تمسه نار . ألا ترى أن هذا الصباح جدير أن يبدد ظلمات  
الليل ، ومثله جدير أن يبدد ظلام الشك ويمزق دجى الكفر  
والنفاق . وقد ظهر بما ذكرناه جمال هذا التشبيه ودفته وبراعته .

يتبع

أحمد أحمد بروى

مدرس بكلية العلوم

## فياح الأدب العربي

للاستاذ أحمد حسن الزيات

يؤرخ الأدب العربي من عصر الجاهلية إلى هذا  
العصر بأسلوب قوى ، ومستيعاب موجز وتحليل مفصل  
واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربي والآداب الأخرى

طبع اثني عشر مرة في ٥٥ صفحة  
ومنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد

قال سبحانه : « مثل الذين كفروا برهيم ، أعمالهم كرماد  
اشتدت به الريح في يوم عاصف ، لا يقدرون مما كتبوا على  
شيء ، ذلك هو الضلال البعيد » .

وليس في القرآن سوى هذين اللونين من التشبيه ، تشبيه  
المحموس بالمحموس ، وتشبيه المقول بالمحموس . أما قوله سبحانه :  
« إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، ظلمها كأنه رءوس  
الشياطين » فالذي سمح بأن يكون المشبه به خيالياً ، هو ما تراكم  
على الخيال بمرور الزمن من أوهام رسمت في النفس رءوس الشياطين  
في هيئة بشعة مرعبة ، وأخذت هذه الصورة يشتد رسوخها  
بمرور الزمن ، وبقوى فعلها في النفس ، حتى كأنها محسوسة  
ترى بالعين وتلمس باليد ، فلما كانت هذه الصورة من القوة إلى  
هذا الحد ساغ وضما في موضع التصوير والإيضاح ، ولا نستطيع  
أن ننكر ما لهذه الصورة من تأثير بالغ في النفس . ومما جرى  
على نسق هذه الآية قوله تعالى : « فلما رأها تهتز كأنها جان  
ولى مديراً ولم يقب » فهي صورة قوية للجان مثله - شديد الحركة  
لا يكاد يهدأ ولا يستقر .

والتشبيه في القرآن تعود قائمته إلى المشبه ، تصويراً له  
وتوضيحاً ، ولهذا كان المشبه دائماً أقوى من المشبه به وأشد وضوحاً  
وهنا تقف عند قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض ، مثل  
نوره كشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها  
كوكب دري ، يوحد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا  
غربية ، يكاد زيتها يضيء ، ولو لم تمسه نار ، نور على نور ،  
يهدى الله لنوره من يشاء ، يضرب الله الأمثال للناس ، والله  
بكل شيء عليم » . فقد يبدو لانظرة المجلي أن المشبه وهو نور  
الله أقوى من مصباح هذه المشكاة ، ولكن نظرة إلى الآية  
الكريمة ، ترى أن النور المراد هنا هو النور الذي يضر القلب ،  
وبشرق على الضمير ، فهى إلى سواء السبيل ، أو لا ترى أن  
القلب ليس في حاجة إلى أكثر من هذا المصباح ، يلقى عليه ضوءه  
فهتمدى إلى الحق ، وأقوم السبل ، ثم ألا ترى في اختيار هذا  
التشبيه إيحاء بمجالة القلب وقد لفه ظلام الشك ، فهو متردد قلق  
خائف ، ثم لا يابث نور اليقين أن يشرق عليه ، فيجد الراحة  
والأمن والإستقرار ، فهو كسارى الليل يخبطن الظلام على غير